

ثمرة العمل المقبول وعلاقتها بهدف وجودنا

كيف تغيّر ثمرة العمل المقبول مسار نمونا وتشكّل تصميمه؟

سبق أن تطرّقنا إلى مفهوم العمل المقبول وبينا أنّه هو العمل الذي ينفذ إلى أعماقنا ويغدو جزءاً من رصيدنا الروحي. هذه الخاصية تكشف عن أهمية العمل المقبول في مسار حياتنا؛ إذ إنّ من أبرز التساؤلات في الدين والأخلاق هو: لماذا وُجدنا؟ وما الغاية النهائية من حياتنا؟ هل تقتصر الحياة على أن نعيش في الدنيا لنأكل وننام؟ أم أنّ هناك هدفاً أسمى، كالتقرب من الله؟ الإجابة عن هذه التساؤلات تقتضي توضيح العلاقة بين العمل المقبول وغاية خلقنا. لإيضاح هذه العلاقة، ينبغي القول إنّ ما يمنح حياتنا معنى واتجاهاً ويُعبّر عنه بـ هدف الخلق، ليس مجرد أداء شعائر وعبادات دينية، بل هو عمل يكون مقبولاً عند الله؛ أي عمل يحظى برضاه ويساعد الإنسان على النمو والتكامل الحقيقي. أما بيان ماهية العمل المقبول وتمييزه عن العمل المردود فقد طُرح سابقاً بتفصيل، ويمكن الرجوع إليه. في السطور التالية، نسعى إلى توضيح الصلة بين العمل المقبول وغاية الخلق، وكيف أنّ ثماره تمهّد الطريق لبلوغ هذا الهدف السامي وتحدد لنا مسار الحياة. في هذا الدرس سيتم الإجابة عن هذه الأسئلة المهمة:

• ما الأثر المميّز للعمل المقبول في نمونا وتكاملنا؟

• كيف يمكن لوجود العمل المقبول أو غيابه أن يغيّر مصيرنا وهويتنا؟

• ما العلاقة بين قبول العمل وقدرتنا على التحلّي بصفات الله والمقام الإلهي؟

كما سوف نسعى، من خلال التأمل في ثمار العمل المقبول، إلى فتح أفق أعمق للتفكير حول قيمة الحياة ومعناها، وإلى إبراز الرؤية التربوية الدينية التي تركز على تحقيق الغاية والنمو الحقيقي، لا مجرد تكرار سلوكيات دينية أو أخلاقية. فالحديث عن نتائج العمل المقبول وثماره، بوصفه حلقةً واصلت بين المسار الفردي للإنسان والغاية النهائية من الخلق، قد يمنحنا رؤية جديدة لفهم الصلة الوثيقة بين الأخلاق والعبادة والمعنى الحقيقي للحياة.

دور العمل المقبول في نمو الإنسان وارتقائه

يُعدّ العمل المقبول أحد أهم عوامل مؤثرة في مسار نمو الإنسان نحو الكمال المطلق. وقد أكّد كبار علماء الأخلاق والعرفان أنّه لا يوجد عامل يهيئ باطن الإنسان للارتقاء والتحول الروحي بقدر أعمال يقبلها الله

تعالى. فالعمل المقبول لا يقتصر على كونه مظهراً خارجياً أو سلوكاً محدداً، بل إن قبوله عند الله يرتبط بثلاثة عناصر داخلية أساسية: الإخلاص في النية، الصدق والابتعاد عن الرياء، وحضور القلب أثناء أداء العمل.

حين يتجرد عمل من كل شائبة ويبنى على نية صادقة ابتغاءً لمرضاة الخالق، لا يقتصر تأثيره على صبغ العلاقات الإنسانية بلونه، بل يتغلغل ليُجري تحولاً عميقاً في صميم الروح والقلب. هذا العمل يصبح تُبعد الإنسان عن رتابة الحياة، وتشتت الأهداف، وقصور النظرة، دافعاً إياه للبحث عن أعمق طبقات ذاته الحقيقية. إنه كبذرة تُزرع في تربة النفس؛ وبالرعاية والمثابرة، تُورق صدقاً وارتقاءً في مدارج الروح. في خضم هذا المسعى، يتجلى النضال الداخلي عبر التعرف على مواطن الوهن (كضعف العزيمة أو فساد النوايا)، فيسعى جاداً ليصبح أفضل ما يمكن أن يكون وهنا، يمنحه القبول الإلهي سنداً معنوياً وزخماً من الأمل يضاعف من عزمه على المضي قدماً في طريق النمو المستمر.

يمثل العمل المقبول حلقة وصل بين الحياة المادية وأبعادنا المعنوية والأخروية؛ فبدأء مثل هذه الأعمال لا يقتصر اهتمامنا على نجاحات دنيوية، بل نوجه أنظارنا إلى تكوين شخصيتنا الحقيقية والخالدة وتعزيزها. وهذا المنظور بدوره يمهد الطريق نحو الغاية النهائية من الخلق، والمتمثلة في القرب من الله تعالى وبلوغ الكمال المطلق. ومن ثم، فإن العمل المقبول ليس مجرد ممارسة دينية بحتة، بل هو برنامج شامل لنمو الشخصية وارتقاء الروح. إن الالتزام بالعمل المقبول يفتح أمامنا مسار النمو الفكري والروحي، ويتيح لنا السعي بجدية وعمق لاكتشاف الغاية النهائية من وجودنا.

العلاقة بين ثمرة العمل المقبول وغاية الخلق؟

كنا قد أشرنا في مقالات سابقة إلى موضوع غاية الخلق وبيّنا أنّنا جننا إلى الدنيا من أجل التشبه بصفات الله، وأن الغاية النهائية من وجودنا ليست مجرد الحضور الجسدي، بل بلوغ مقام العبودية والقرب الإلهي. ووفق هذا المنظور، فإن العبودية لا تعني الاقتصار على أداء العبادات والطقوس الدينية، بل هي مسار للنمو وتربية باطنية تُهيئنا لأن نتجلى في ذواتنا أسماء الله وصفاته، فنكتسب فضائل إنسانية واحدة تلو الأخرى. إننا كبشر نمتلك قابلية غير محدودة للنمو والارتقاء، وقد سُخّرت لنا جميع إمكانات الدنيا لخدمتنا في هذا المسار من أجل بلوغ العبودية الحقّة. ورسالتنا في رحم الدنيا هي بناء نفوسنا وتنميتها، حتى نسلك طريق العبودية الذي يقودنا إلى الكمال المطلق، أي إلى الله تعالى. ومن هنا تبرز الأهمية

الخاصة للعمل المقبول، إذ إن العبادات والطقوس الدينية، إذا لم تُؤدَّ ضمن شرط القبول الإلهي، فإنها لن تضمن نجاح الإنسان في هذا الطريق.

العمل المقبول هو ذلك الفعل الذي يتوافق ظاهره مع أحكام وتعاليم إلهية، وتتسم نيته وبواعثه بالصفاء والإخلاص؛ أي يُؤدَّى خالصاً لوجه الله، فيترك أثراً حقيقياً في شخصيتنا وحياتنا. وحده هذا العمل قادر على أداء دوره الفعّال في مسار العبودية، ليصبح جسراً يعبر بنا من العالم المادي إلى مراتب وجودية أسمى. وتتجلى ثمرة العمل المقبول تحديداً في هذا التحول والنمو الوجودي؛ إذ إنه يبعث على تفتح طاقات كامنة، ويزيد المعرفة، ويقربنا من الكمال المطلق.

لماذا يُعدّ العمل المقبول شرطاً أساسياً لبلوغ غاية الخلق؟

كثا قد أشرنا إلى أنّ ثمرة العمل المقبول تتمثل في بلوغ هدف الخلق، أي التشبّه بالكمال المطلق. غير أنّ السؤال هو: كيف يتحقق هذا المسار؟ ولماذا يحظى العمل المقبول بمثل هذه الأهمية، بحيث لا يمكن من دونه أن نحظى بميلاد سليم في الآخرة؟ في ما يلي سنقدّم بإيجاز إجابة عن هذين السؤالين.

تحقيق سخيّة الوجود بالعمل المقبول

إنّ العمل المقبول يُسهّم في انسجام النفس والشخصية مع القيم والصفات الإلهية، كما يُنمّي قدراتنا الداخلية. ومن ثمّ، فإن هذا النوع من العمل يساعدنا على اكتساب الأهلية لبلوغ مراتب معنوية أرقى، والاقتراب أكثر من الغاية الأساسية للخلق. في الحقيقة، إن ثمرة العمل المقبول تتمثل في تحقيق الانسجام الوجودي مع مراتب الكمال والتقرب إلى الله تعالى؛ ذلك لأن القبول يُعدّ مؤشراً استراتيجياً يبيّن مدى ارتباط العمل بهدف خلق الإنسان. فالنمو والكمال الحقيقيان متوقفان على هذا الارتباط والانسجام. كما أنّ الدراسة المتعمقة للنصوص الدينية والتحليل العقلي يوضّحان بصورة أكبر أنّ قيمة كل عمل إنساني تُقاس بمدى صلته بالغاية النهائية من الخلق، وأن هذا المعيار ينبغي أن يكون مرجعاً لسلوك الفرد وقراراته سواء على المستوى الشخصي أو الجماعي.

الأثر في المصير الأخروي

وفقاً للأصول القرآنية والسنن الروائية، فإن الأعمال التي تُفتقد فيها شروط القبول، حتى وإن اكتست رداء التدين الظاهري، لا تُجدي صاحبها نفعاً ولا تُعدّ رصيماً قيماً في الآخرة؛ فالأعمال المقبولة وحدها هي

¹ «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً؛ أي إننا تفقدنا جميع أعمالهم التي قاموا بها، فجعلناها. لعدم قبولها. كغبارٍ متناثر.» (الفرقان، ٢٣)

التي تضمن لنا السعادة الخالدة. ومن يكتفي بالتشبّث بظاهر التديّن دون التفاتٍ إلى مقبولية عمله، فإنما يبتعد عن جادة النمو الحقيقي. بل إن مثل هذه الأعمال قد لا ترفع صاحبها قيد أنملة، بل ربما تفتح له باب الغفلة، أو تهيبّ أرضية الكبر والرياء، فتزجّه بعيداً عن الغاية التي خُلق من أجلها. فالانشغال بظاهر العبادة، وإغفال باطنها وروحها، يُفرغ الدّين من جوهره، ويحيله إلى سلوكٍ سطحيّ هسّ، يمهّد للغفلة والرياء، بل وقد يجرّ إلى الانحراف عن الهدف الأسمى للخلق. أمّا العمل المقبول، فبما يقوم على إخلاص النية ونقاء الباطن، فإنّه يُنبت في القلب جذور النمو الحقيقي، ويقرب الإنسان من ربّه زلفى. وههنا يكمن الفارق الجوهرى بين تديّن أصيل وتديّن متظاهر؛ فالمعيار ليس في مجرد أداء الأفعال، بل في عمقها وجودتها وحقيقتها أثرها.

وعلاقة الإنسان بغاية خلقه، وثيقة الصلة بالعمل المقبول، لا تنفصل عنه؛ فهو ليس مجرد وسيلة طاعة فردية، بل هو محرّك لمسيرة الإنسان ورقّي المجتمع معاً. إذ لا يبلغ المرء غاية خلقه إلا إذا اكتسب عمله بُعد الباطني، وانسجم كيانه مع قصد الخلق، وحينها فحسب يقترب من المآل الذي أراده الله له. وهنا تتجلّى ثمرة العمل المقبول: رابطة حيّة تربط سلوك الإنسان بهدف الخلق في أسمى معانيه. وفي الختام، فإن مقبولية العمل ميزان الدين الحقّ، وعلامة السلامة من الغفلة والرياء؛ لتغدو أعمال المرء مرآة صافية تعكس في حياته اليومية جوهر الغاية من وجوده.

«إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ؛ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ الْعَمَلَ مِنَ أَهْلِ التَّقْوَى فَقَط.» (المائدة، ٢١)
وقال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ؛ فكم من صائمٍ لا ينال من صيامه سوى الجوع، وكم من قائمٍ لا يجني من قيامه سوى السهر.» (من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٧٩؛ وسائل الشيعة، ج٧، ص٣١٢)
وقال الإمام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً لَهُ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً لَهُ.» (الكافي، ج٢، ص١٦)